الفصل الرابع

من عناصر القوة فى شخصية الداعية

يقول الله عز وجل : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل: ١٢٥] .

الأمر بالدعوة : تكليف :

الأمر بها بالخطاب : تشريف . . ﴿ رَبِّكَ ﴾.

والتكليف يعنى : الثقة بالداعية . وما يترتب عليها من عمل دءوب يثبت أنه أهل لهذه الثقة . .

والتشريف يعنى : الاعتزاز بالمهمة . . انطلاقا من الإحساس بهذا الشرف المنيف .

وإذ يدعو بعض الناس إلى فضيلة الإيثار أو الصبر مثلا . . فإن الداعية الحق يدعو إليهما مستحضراً عظمة الأمر بهما سبحانه . والذى سوف يسأله غدا عن فعله وعن قوله .

ويترتب على هذا الانطلاق فى طريق الدعوة بأخلاقه كلها على ما يقول الرافعى : الرجل الدينى : لا تتحول أخلاقه ولا تتفاوت .

ولا يجىء ، كل يوم من حوادث اليوم فهو بأخلاقه كلها : فلا يكون مرة ببعضها . ومرة ببعضها . . ولن تراه مع ذوى السلطان وأهل الحكمة والنعمة كعالم السوء هذا الذى لو نطقت أفعاله لقالت له بلسانه : هم يعطوننى الدراهم والدنانير يا ولدى . . فأين دراهمك أنت ودنانيرك ؟!

إن الدينار يا ولدى إذا كان صحيحًا فى أحد وجهيه دون الآخر أو فى بعضه

دون بعضه .. فهو زائف كله . ا. هـ .

والأحرى بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء أن ينطقوا بكلمات النبوة ويقوموا بحجتها ، ويأخذوا من أخلاقها كما تأخذ المرآة النور : تحويه فى نفسها وتلقيه على غيرها ، فهى أداة لإظهاره وإِظهار جماله معًا .

الفرق بين علماء الحق وعلماء السوء وكلهم آخذ من نور واحد لا يختلف ؟ إن أولئك فى أخلاقهم كاللوح من البلور : يظهر النور نفسه فيه ويظهر حقيقته البلـوريـة ، وهؤلاء بأخلاقهم كاللوح من الخشـب يظهر النـور حقيقتـه الخشبية لا غير! .

كما يقول الرافعى أيضًا : إنه يعتمد على الله تعالى وحده .. وهو الحى الذى لا يموت .. أما غيره .. فإنه معتمد على ميت : وإذا اعتززت بميت ... فإن عزك ميت!!

وذات يوم دخل الرجل الصالح دار صديقه فوجده يبكى .. فلما سأله عن سر بكائه ، قال له : أبكى على شيخى الذى مات .. فكان جواب الرجل الصالح : ولماذا تعتمد على ميِّت ؟!

يروى الشيخ على الطنطاوى من ذكرياته . قال : جاء شوقى أمير الشعراء دمشق مرة وزرته مع أخوة لى ، فوجدته مع مجموعة من الشعراء الكبار . وأمامهم مائدة عليها أوانى الخمر .

وكنت أحمل عصا : فمددتها . ومشَّيتها على وجه المائدة . فحذفت كل ما كان عليها . فكسرته !

وتستطيعون أن تتخيلوا ماذا صار : اختلطت بهم كالاختلاف الزيت بالماء .. لا كاختلاط الماء بالخل .

وإذا كان لنا تحفظ على هذا الاندفاع غير المحسوب .. فإن المشهد يظل دليلا على ما يكنه الداعية من قوة مشتقة من الإيمان .. تواجه المنكر بمثل هذا

التحدى . .

ومن المفيد هنا أن نذكر موقفًا آخر للرجل : موقفا لا تنقصه القوة . . ولكنه تم فى صحبة الحكمة التى تقتلع المنكر من جذوره . . وبلا انفعال .

قال رحمه الله : كنت يومًا مع مجموعة من الأصدقاء : فجاء رجل لا يعرفه منا أحد . فاندس بيننا . وحشر نفسه فينا ، وجعل يتكلم كلامًا عجيبًا . أدركنا معه أنه يدعو إلى نحلة من النحل الباطلة ، فتناوشوه بالرد القاسى . والسخرية الموجعة ، فأشرت إليهم إشارة لم يدركها : أن دعوه لى ، فكفوا عنه .

وجعلت أكلمه . وأدور معه . وألفّ به . حتى وصلت إلى إفهامه أنى بدأت أقتنع بما يقول .

ولكن . مثل هذه الدعوة لابد فيها من حجة أبلغ من الكلام ، فاستبشر وقال: ما هى ؟

فحركت الإبهام على السبابة ، وتلك إشارة إلى النقود ، قال : حاضر .

وأخرج ليرتين ذهبيتين يوم كانت الليرة الذهبية شيئًا عظيمًا . .

مد يده بالليرتين . فأخذتهما أمام الحاضرين جميعًا ، وانصرف الرجل . بعد أن عرفنا اسمه .

فما كاد يبتعد ، حتى انفجرت الصدور بالضحك ! وأقبلوا علىّ مازحين فمن قائل : شاركنا يا أخى! وقائل : اعمل بهما وليمة أو نزهة . قلت : سترون ما أنا صانع .

وذهبت فكتبت رسالة تكلمت فيها عن المذاهب الإلحادية ، وجعلت عنوانها سيف الإسلام وكتبت على غلافها : طبعت بنفقة فلان باسم الرجل الذى دفع الليرتين . وبلغنى أنه كاد يجن ، ولم يستطع أن ينكر أمرًا يشهد عليه سبعة من أدباء البلد . وقد بلغنى أن جماعته طردته بعد أن عاقبته .

وما دام الداعية يدعو إلى سبيل ربه .. فليس لإنسان عنده اعتبار إلا بمقدار خشيته لله تعالى وتقواه : والكل فى نظره سواء ..

وإذا فرق الناس اليوم بين البشر بمقدار ما بينهم من فروق الدنيا .. فإن الداعية الحق ـ وانطلاقا من تصوره لعظمة الله عز وجل يخاطب الكل بلسان واحد وعلى أساس واحد :

وكان شيخنا الإمام العظيم شيخ الإسلام تقى الدين بن مجد الدين بن دقيق العيد لا يخاطب السلطان إلا بقوله : (يا إنسان) ! فما يخشاه ولا يتعبد له ولا ينحله ألقاب الجبروت والعظمة ولا يزينه بالنفاق ولا يداجيه كما يصنع غيره من العلماء ، وكان هذا عجيبًا ، غير أن تمام العجب أن الشيخ لم يكن يخاطب أحداً قط من عامة الناس إلا بهذا اللفظ عينه (يا إنسان) ، فما يعلو بالسلطان والأمراء ولا ينزل بالضعفاء والمساكين ، ولا يرى أحسن ما فى هؤلاء وهؤلاء إلا الحقيقة الإنسانية !

ثم كان لا يعظم فى الخطاب إلا أئمة الفقهاء فإذا خاطب منهم أحداً قال له : (يا فقيه) ، على أنه لم يكن يسمح بهذا إلا لمثل شيخ الإسلام نجم الدين بن الرفعة ، ثم يخص علاء الدين بن الباجى وحده بقوله : (يا إمام) إذ كان آية من آيات الله فى صناعة الحجة ، لا يكاد يقطعه أحد فى المناظرة والمباحثة ، فهو كالبرهان : إجلاله إجلال الحق ، لأن فيه المعنى وتثبيت المعنى . ا . هـ .

ومعنى ذلك : أن الداعية الحق يستمد من إحساسه بعظمة الله عز وجل قوة تحمله على أن يجرد المخاطب من كل شارات الدنيا .. ليرى لدى كل من يخاطبهم الحقيقة التى يشتركون فيها وهى : الإنسانية .

ومن ثم لا يرفع السلطان فوق ما ينبغى .. ولا يهبط بالفقير أقل مما ينبغى..

ومن أجل ذلك يفرضون هيبتهم .. وتصير كلمتهم قانونا واجب التنفيذ ..

قال الإمام : وما رأيت مثل شيخى سلطان العلماء عز الدين بن عبد السلام

فلقد كان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر شيئًا تصنعه طبيعته كما يصنع جسمه الحياة ، فلا يبالى هلك فيه أوعاش ، إذ هو فى الدم كالقلب : لا تناله يد صاحبه ولا يد غيره ، ولم يتعلق بمال ولا جاه ولا ترف ولا نعيم ، فكان تجرده من أوهام القوة لا تغلب ، وانتزع خوف الدنيا من قلبه فعمرته الروح السماوية التى تخيف كل شىء ولا تخاف ، وكان بهذه الروح كأنه تحويل وتبديل فى طباع الناس ، حتى قال الملك الظاهر بيبرس وقد رأى كثرة الخلق فى جنازته حين مرت تحت القلعة : الآن استقر أمرى فى الملك فى ، فلو أن هذا الشيخ دعا الناس إلى الخروج علىّ لا نتزع منى المملكة .

ويبقى الداعية الضعيف كالبهائم : تقدم أعمالها لتأخذ لبطونها .. والبطن الآكل فى العالم السوء يأكل دين العالم فيما يأكله ..

فإذا رأيت لعلماء السوء وقارًا فهو البلادة ، أو رقة فسمها الضعف ، أو محاسنة فقل إنها النفاق ،أو سكوتا عن الظلم فتلك رشوة يأكلون بها !

إن الضعيف .. لا يستطيع أن يقول : لماذا ؟ وكأنه امرأة تولول فى صحراء جرداء على الذى كان .. فإذا نام : استيقظ على حلم بائس يائس ،

وأخيرًا : ربما جاز لنا أن نقول : إن الداعية القوى .. خير من الداعية الضعيف وفى كل خير .

إنها الشجاعة الأدبية : ولأن الداعية يغير ما يشاء الله من عادات المجتمع .. فلابد أن يتسلح بقيمة « الشجاعة الأدبية » يحسم بها مادة النزاع ، ويحق بها الحق. ويبطل الباطل .

يقول العلماء كاشفين عن بعد آخر : يبلغ المسلم فى الشجاعة الأدبية الغاية القصوى .. ذلك أنه يؤمن أن الأمة لو اجتمعت على أن تضره بشىء فلن تضره إلا بشىء قد كتبه الله عليه ، وإن اجتمعت على أن تنفعه بشىء فلن تنفعه إلا بشىء قد كتبه الله له . كما ورد فى حديث رسول الله ﷺ ويؤمن كذلك بقول

الرسول الكريم ﷺ وقد سئل أى الجهاد أفضل ، فقال : « **كلمة حق عند سلطان جائر** »(١) .

وبحسبنا نموذجًا للشخصية الإسلامية شخصية ظهرت قبيل عصر المماليك . وهو عصر يعده الكثير من المؤرخين من عصور التأخر والانحطاط . ومع ذلك نرى فيه الشخصية الإسلامية فى أكمل صورها فى شخصية العز بن عبد السلام .

ففى أيام الدولة الأيوبية « لما والى الملك إسماعيل الإفرنج أيام الحروب الصليبية وسلم لهم صيدًا وغيرها من الحصون ، ليخبروه على الملك نجم الدين أيوب ، أنكر عليه عز الدين عبد السلام هذه الفعلة ، فغضب عليه وعزله واعتقله» .

ثم بعث إليه يعده ويمنيه . فقال له رسول السلطان : تعاد إليك مناصبك وزيادة وما عليك إلا أن تنكسر للسلطان .

فما كان جواب الشيخ إلا أن قال : « والله ما أرضاه أن يقبل يدى ، يا قوم أنتم فى واد وأنا فى واد » (٢) .

ويسجل المؤرخون للشيخ قصة أخرى على شجاعة المسلم الأدبية ، وقف فيها الشيخ منفردًا أمام نائب السلطان وأمرائه ، وكانوا يقتلون النفس ، وهم يلهون ويلعبون .

وقف السلطان العز بن عبد السلام أمام نائب السلطنة ومن حوله يستذلهم ويصفهم فى موضع العبيد ، بل يبيعهم كما يباع العبيد ، وينفق ثمنهم فى مصالح المسلمين .

يقول المؤرخون : « إن الملك الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر ، أسرف فى شراء المماليك من بيت المال ، وأخذ بعد ذلك يعتقهم ، ويجعل منهم أمراء

(١) رواه النسائى بإسناد صحيح .

(٢) كتاب أبو حنيفة : للأستاذ الجندى.

يتسلطون على رقاب الناس .

ولم يصح عتقهم عند الشيخ ، فأفتى بأنهم لا يزالون ملكًا لبيت المال وأنهم لابد أن يباعوا ويوضع ثمنهم فى بيت المال ، وكان من بين هؤلاء الأمراء نائب السلطان ، واجتمع الأمراء وطلبوا من الشيخ أن يحدثهم فى هذا الأمر العجيب.

فقال : لا رأى عندى ولا حكم إلا أن نعقد لكم مجلسا ينادى عليكم فيه للبيع ويدخل ثمنكم إلى بيت المال ، ثم يكون عتقكم بطريق شرعى بعد ذلك ورفع الأمراء الأمر إلى السلطان .

فبعث السلطان إلى الشيخ من يطلب إليه أن يرجع عن فتواه ، فلم يرجع . فأنكرعليه السلطان أن يدخل فى هذا الأمر الذى ليس من شأنه .

فغضب الشيخ وأخرج متاعه اليسير ، وسار به يريد أن يعود إلى وطنه بالشام وتسامع الناس أن سلطان العلماء قد غضب على البلد ، وعلى سلطانها .

فغضب الناس لغضب الشيخ ، ولحقوا به ، ولما وصل الأمر للسلطان وعلم بغضب الشعب ، أسرع السلطان فركب بنفسه ؛ وسار حتى لحق بالشيخ ، وأخذ يلاطفه ويترضاه حتى قبل أن يرجع إلى بيته . على شرط أن ينزل الأمراء على رأيه .

فقبل السلطان ، وعقد لهم الشيخ سوقًا ، نودى عليهم فيه للبيع ، واحدًا بعد واحد وغالى فى أثمانهم ، وقبضها بنفسه ، وأنفقها فى مصالح المسلمين، وكان يومًا مشهودًا وأمرًا عجبًا .

• • •

ويظل أرباب الأقلام .. أقوى

هزم نابليون ألمانيا .. ولكنه طلب مقابلة شاعرها الكبير « جيته » الذى وصفه قائلا : هذا رجل .

وذلك يعنى أن رب القلم أقوى تأثيرات رب السيف .

قال ابن المقفع :الملوك أحوج إلى الكتّاب .. من الكتاب إلى الملوك .

وفى ذلك يقول الشاعر :

قوم إذا أخذوا الأقلام عن غضب ثم استمدوا بها ماء المنيّات

نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا ما لا يُنال بحدّ المشرفيات

وتأمل من قوته : قدرة الفنان التى تتضاءل إلى جانب قدرة الداعية ، فالفنان التشكيلى قد رسم مشهداً « لحصان » فتجىء الصورة لقطة واحدة لحصان واقف..

وأين هو من « امرئ القيس » الشاعر الذى استطاع بكلماته المعبرة أن يرسم هذا الحصان فى لقطات متعددة لمّا قال :

مكرّ مفرّ مقبل مدبر معًا كجلمود صخر حطه السيل من عل

وهكذا يظل صاحب الكلمة أقوى :

إذا ظهر .. تراجع كل من حوله .. على ما قيل :

سرينا ونجم قد أضاء .. فمذ بدا محياك .. أخفى ضوؤه كل شارق!

• • •

انتشار الإسلام فى روسيا

سنة ١٣١٣ تولى زعامة القبيلة الذهبية « أوزبك خان » .

أ ـ كان مسلمًا ، متحمسًا الإسلام باقى القبيلة أوّلا .

ب ـ ثم وضع خطة لنشر الإسلام فى روسيا:

جـ ـ ترك المسيحية تنتشر بلا معارضة .

د ـ ثم كتب للمطران بطرس رئيس المسيحيين فى بلاده يؤكد له تقديره للمسيحية ، ثم أظهر تسامحه .

وقد رد عليه البابا يوحنا بخطاب شكر .

وظل الإسلام مقتصراً على المناطق الخاضعة للقبيلة الذهبية فى روسيا .

أما بقية الروس ، فقد بقوا على ديانتهم المسيحية وغيرها ، يؤدون الجزية «لأوزبك خان » ولم يفرض عليهم الإسلام .

ومن أسباب انتشار الإسلام هناك :

كان يجاورُ مغول « الذهبية » فى جنوب روسيا :

وهم طائفة كبيرة من المغول . شعب إسلامى من أصل تركى (البلغار) أسلم أيام الخليفة العباسى : المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠) هـ، إذا أرسل إليهم عدداً من الدعاة.

• • •

التنافس من أجل الإسلام

حرص البلغار على تحويل روسيا للإسلام ، وكان ملك البلاد وثنيا (فلاديمر). فتنافس الجميع على اجتذابه :

المسلمون . النصارى . اليهود .

وقد أخفق اليهود فى الكتاب (تذكر عدم انسجامهم مع المصريين فى عهد فرعون وبقى التنافس بين المسلمين والنصارى .

كان الرجل يكـره الختان ، ويكره تحريـم الخمر بل الروس جميعًا مولعون بها.

جمهور المسيحية :

أرسلوا إليه داعية لِسنا خطيبًا ووعدّ بملك السماء وأثر فى الملك فعلاً (قرارِ الملك) . كان يميل للإسلام ، لكنه قرر إرسال وفدين لبلاد المسلمين والنصارى فمن وجد هناك رخاء اتبع دينه .

وجد الوفد فى البلغار:

فقراً .. موحشة .. كئيبة .. المساجد بسيطة لا زخرف فيها .. لا موسيقى.

لكنهم ذهبوا إلى الألمان .. و القسطنطينية فوجدوا :

الرخاء .. والتزاين .. والمظاهر وخاصة فى كنيسة أيا صوفيا الضخمة ـ نذكر بهرجة وفد نصارى نجران ـ والإعلام المعادى ، إلى جانب أن الرخاء سمح لهم بالاعزاق على الوفد .

مال الرجل للمسيحيين سنة ٩٨٨ م.

النتيجة :

أ ـ انتشرت المسيحية فى روسيا .

ب ـ خضع لهم بلاد .

جـ ـ تعصب القياصرة ..

د ـ اضطهدوا المسلمين فى كل بلد حلوا فيه .

لم يفق مسلمو روسيا إلا سنة ١٩٠٧ عندما أعلن التسامح الدينى .

وقبيل قيام الثورة الشيوعية ١٩١٧ . كان هناك فى روسيا عدد من مسلمى التتار الذين استعين بهم هناك فى الشؤون العسكرية (مهم وشبابنا اليوم) ولكن السلطات الروسية كانت لهم بالمرصاد :

opeikandi.com

١ ـ ممنوع بناء المساجد .

٢ ـ لم يكن فيهم علماء يفقهونهم ـ فكانت لديهم خرافات .

٣ ـ لم يسمح لهم بالزواج من الروسيات إلا إذا دخلوا المسيحية .

٤ ـ عملوا على تنصيرهم .

٥ ـ بل والتنكيل بهم .

وفى ١٩١٧ الثورة ، ومع ذلك ظل التتار محتفظين بدينهم حتى قامت الثورة فرفضوا التخلى عن إسلامهم فى أوائل أيام لينين فصدر قرار بنقلهم إلى سيبريا وتفريقهم فى مهامهًا حتى انقرضوا .

• • •

تتار القرغيز

ظلوا من دون إخوتهم السابقين ـ مستمسكين بالإسلام حتى جاء عهد كاترين الثانية ، فغلبوهم بالحيلة .

أشاعت روسيا أنهم كانوا وثنيين . ثم تنصروا ثم ارتدوا إلى الإسلام . فلا بد من عودتهم للمسيحية وكتبوا فعلا فى سجلاتها .

ولم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم لجهلهم وفقرهم .

• • •

ثبات القرغيز

وفى « قازان » عاصمة قطرهم أنشأوا مركزاً للدعوة ، وزعوا منشورات .

العالم عندهم كان يسمى « المُلاَّ » وهو فارسى معناه : الشيخ أو الفقيه، وانتشر المليات . . والطلبة يدعون للإسلام رغم الظروف الصعبة ، وبلغ من دخل الإسلامْ من سنة ١٩٠٦ حتى ١٩١٠ ، ثلاثة وخمسين ألف !

الظروف تساعد كان مجتمع القرغيز نظيفًا راقيًا .. أشد تماسكا .. وتسامحًا، مما أمال القلوب إليه ، بخلاف المسيحية حيث كان القساوسة شداد غلاظ ينفرون باستعداء السلطة على الناس .

وهكذا تحول التتار أشد اعداء الإسلام إلى دعاة ـ فلتتعلم!!

مخطط روسيا للقضاء على الإسلام :

١ ـ إحياء النعرات القومية .

٢ ـ فرض العادات الشيوعية وتقاليدها .

٣ ـ تولية الروس المناصب الحساسة .

٤ ـ صهر كل القوميات فى القومية الروسية .

٥ ـ إرغام القوميات على الهجرة .

٦ ـ نشر اللغة الروسية .

نتائجه :

١ ـ زادت نسبة المسلمين ووعيهم وولائهم للإسلام لا لروسيا .

٢ ـ أثار الاضطهاد روح المعارضة .

٣ ـ جمعتهم المصائب .

٤ ـ انتشرت المساجد .. والمدارس خاصة تحفيظ القرآن الكريم .

٥ ـ ما يزالون يخرجون صدقة الفطر وعشر المحصول مع إلغاء ، الحكومة الزكاة ، فشلوا فى أفغانستان .

نعمة الدعوة

كان الداعية الصالح يقول أحيانا : إذا كان هناك من يفتخر بالكلام فليكن فخرك أنت بالصمت ..

والحمد لله : فقد عافانا الله من غرور السلطان ، وثناء الناس ، وكانت معرفتنا بأنفسنا غالبة على جهل الناس بها .

والحمد لله على أننا من أمة فيها حاكم .. لا ظالم : فيها الفقير والغنى . ولكن ليس فيها إذلال . ولا بطر .

قد تلجأ إلى السؤال : لكنها لا تنحط إلى الاحتيال أو الابتذال .

• • •

« خشب » الدعاة يهزم « حديد » الملحدين

لما حاصر الصليبيون « عكا » واكفهر الجو .. ماذا حدث ؟

قام « علىّ النحاس » فصنع ثلاثة أبراج من الخشب .. وكانت هى التحدى الأكبر « لتكنولوجيا » الغرب !

وهكذا قد يغلب الضعف الشريف .. القوة السافلة !

وقد ذكر أن « نابليون » قاهر الأمم كان يخاف من الهرة ؟!!

من أسباب قوة الداعية :

والداعية المسلم : طليق .. واسع .. عالم رحب : يؤمن بموسى وعيسى ونوح عليهم السلام ، مع أنه ليس من أقوامهم .

بل إن إيمانه لا يتم .. إلا إذا آمن بهم .. وبكل رسل الله جميعًا : ما علم منهم . وما لم يعلم .

ومن رحابته : أنه يؤمن بعالم الغيب .. وعالم الشهادة معًا .. فى الوقت الذى لا يؤمن فيه الملحد إلا بعالم الشهادة فقط .

وشعار الداعية هو : وكلما ذكر اسم الله فى بلد عددت أرجاءه من لبّ أوطانى .

فانظر إلى أى حد كان المؤمن متحضراً .. وبخاصة إذا علمت أن ما عرفناه من عالم المادة هو ٣ ٪ فقط ؟!!.

• • •

إيجابية الخطيب

يقول ﷺ : « لا يكن أحدكم إمعة يقول : إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساؤوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم .. إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا ألا تسيئوا معهم » .

تمهيد :

جاء الوالد من أقصى القرية يسعى .. مبتهجًا فخوراً بولده الذى صار له شباب يأتمرون بأمره .. يعمرون الدار الآن التى ولأول مرة تستقبل هذا العدد من الشباب الذين هم رهن إشارته ؟!

وقلت له : ابنك فعلا آمر .. لكنه بنفس القوة مأمور !! يكتب ما يملى عليه!!

والحديث الشريف يرفض هذه التبعية مفضلا أن تكون تربية الولد استقلالية. فرارا من التبعية التى تجعله نسخة مكررة : يتلاشى مع الأيام إحساسها بذاتها !!

وهذا ما يقرره علماء الاجتماع وهو : « أن الضعيف مأخوذ دائمًا بقوة الغالب القوى .. واتباعه ، ذلك بأن القوة فى ذاتها دعوة إلى اتباع فضائل من يتحلى بها . ولأن ضعفه يحمله على الاقتباس من أسباب القوة عند الغالب » .

« وإن الاحتكاك فى الحروب يجعل الأخلاق تسرى بين الناس . وتعلو الأخلاق القوية على الأخلاق الضعيفة ، ويُفيض الأعلى على الأدنى كشأن طبائع الأشياء : فى الماديات والمعنويات على سواء ».

والمطلوب هو : التربية الاستقلالية . كما قلنا : وإلا .. فإن استسلام الناشئ

يجعله ذلك النبات الذى يكون فى الظل : إنه سوف يذبل ويموت !

كتب أحد الباحثين عند تجربة « غربية » فقال :

البحث عن الذات :

الأمير هارى (١٩ عامًا) حفيد ملكة انجلترا أغنى سيدات العالم وصل إلى استراليا يوم الثلاثاء وبدأ العمل فى اليوم التالى بمزرعة مواشى يمتلكها أصدقاء لأمه وذلك من أجل اكتساب مهارات إضافية بين سنوات الدراسة .. يا سبحان الله أمير والدنيا ملك يديه يرفض الركون إلى ثراء عائلته ويبحث عن ذاته بعيداً عن الإمارة ، ولا يجد فى العمل فى مزرعة مواشى ما يشينه بل ما يعزز شخصيته ويدفع من احترام الآخرين له .. إنه يستحق بهذا الأسلوب فى التفكير لقب أمير الشباب كلقب صنعه بنفسه ولم يرثه .

ترى كم من شبابنا أمراء الروشنة والتقاليع الغريبة يمكن أن يفكر مجرد تفكير بهذا الأسلوب بل ما هو أكثر من ذلك ترى كم من شباب يستنكف هذا العمل لمجرد أنه حاصل على شهادة جامعية .. كم من عبارات الاستخفاف ستواجهك .. لماذا أصبحنا لا نجد ما نأخذه من الغرب ومن شباب الغرب سوى المظاهر السلبية والسلوكيات الشاذة ونتجاهل أى مظهر إيجابى آخر .

ولماذا نذهب بعيداً .. بينما مشاهد الكون من حولنا تؤكد هذا المعنى ؟

لقد حاول الرجل أن يريح « دودة القز » فشق لها مخرجًا فكانت النتيجة هى موتها !!

ثم مشهد « الهرة » التى لا تلتهم قطعة اللحم الملقاة إليها لا تلتهمها فور إلقائها .

وإنما تدور حولها .. مزمجرة ! ثم تنقض عليها .. لتوهم نفسها ومَنْ حولها؛ بأنها كالأسد: لا تأكل إلا غلابا، ولا تقبل أن يكون طعامها غنيمة باردة!

• • •

فى نور القرآن الكريم

وقد شدد القرآن الكريم النكير على هذه التبعية القاتلة . . وذلك فى قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠] .

وتأمل من آثار التبعية كيف يدعون إلى اتباع ما أنزل الله تعالى من الهدى . . ولكنهم يرفضون معتذرين بعذر أقبح من الذنب وهو : إن آباءهم كانوا أكبر منهم وأكثر خبرة . . وإذن . . فهم أولى بالاتباع ؟!

وهكذا يعصون الخالق . ويستسلمون للمخلوق !! ولكن الآية الكريمة تفضحهم بهذا المنطق الصارم : تتبعونهم حتى ولو كانوا أغنياء . . ظالمين ؟!

إننا في حاجة إلى مجتمع : يحس فيه الفرد بأنه سيد قراره . . أن يستقل فى التفكير . وفى الرأى . .

وإذن . . فالإسلام بهذا الحديث الشريف . . يفرّ بالمسلم من مواطن التبعية . .

وبخاصة : بعد الحرب : لأن المغلوب مولع بتقليد الغالب . . الغالب : الذى يدعو بقوته إلى اتِّباعه . . لتتلاشى شخصية التابع فى كيانه . .

والمسلم مطالب بعكس ذلك : ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] .

وهذا ما حدث بالفعل مع التتار . . الذى غَلبوا أولا . . ثم دخلوا فى دين الله أفواجًا . .

وذلك عندما استشعر المسلمون أنهم . . مع هزيمتهم هم الأقوى بإيمانهم . . فكان ما كان . . وتلك ثمرة الإيمان . .

يا أيها الدعاة :

أيهـــا المدلجـــون فـــى الأسحـــار أيها الســـائرون صـــوب النهـــار
أنتم القوة التـــى تكنـــس الليـــل وأنتـــــم مـــلامـــح التيـــار
أنتـــم الكـــنز فـــى تـــراب بـــلادى والمصابيـــح فى الدجـــى الغدار
والسيوف التى على الدهـر مازالـــت تخـــط النهـــار تلـــو النهـــار
مشرعـــات لما تـــــزل وستبقـــى وحياة الســـيوف فى الإصـــرار
قاطـــرات وكل قطـــرة مســـك مشهـــد فى ملاحـــم الثوار
ما نبت تلكم السيوطـــى المواضـــى لا .. ولا هذه الليوث الضوارى

• • • •

لا تظنـــوا « الله أكبر » قد شاخت وشاخـت مواقـف « الأنصـار »
فاسألوا المشرقـين كيـف تـدك البغـى دكا وتثنـى بالغـار !؟
فاسمعـــوها مـــن كل صوب تدوى وأصيخـــوا لهـا مـع الأسحار
هـى بيـت القصـيد قبلا وبعـداً وهـــى المبتـدأ وعقبـــى الـــدار
أيهـــا الساجدون فـــى حلك الليـل لعمرى فالليل محـــض انتظـــار
فانظروا الشهب ضاحكات على البعد تقول : الصبـــاح تحـــت إزارى
والبساتيـــن فـــى الربـــا مزهـــرات كلها أوشكـــت علـــى الإثمـــار
والربيع الضحـــوك أقبل يسعـــى بنسيـــم يهب مـــن « ذى قـــار»
وخيـول اليرموك تصهل خلف الباب .. « وثابـة » علـــى الأسوار
فوقهـــا راية الصـــباح وآيـات تضـــىء الوجود بالأقمـــار
فافتحوها نوافذ الفجـــر إن الريـــح ... جـاءت تبوح بالأســـرار

وارفعوها القلوع فى أول الضـــوء ... قهـدى مواســم الإبحـار
لا تخـافـوا فباســم ربى تجــرى هذه الفلـك ، باسـمـه الجبـار
هــذه أمــة الفـوارس فاقــرأ ما يشــاء الزمــان من أخبــار
تنجب الليث بعـده الليث يجــرى فقطـار الليـوث أى قطــار

• • • •

فاقرأوا ذكركــم رخيمـًا قويـا فى الضحى والمسـاء والأسحار
وتأســوا فإن فيه عظــات واقطفوا منه يانعات الثمــار
واقرأوا كـل قصــة سطرتــها شفرات الأبــوة الأحــرار
واقرأوا واقـرأوا التــراث فليــس الهدى أن تمتحوا من الآبار ...
فاقرأوه عقــدا بجيد الليالــى وســوارا بمعصم الأقــدار
واقرأوه برقــًا وقصفــًا ورعدًا وسحابـا يســح بالأمطــار
واقرأوه شكـلاً ومعنــى ووحيـًا وصــلاة للواحـد القهــار
واقرأوها « انفروا خفــافًا وثقالاً » فانفــروا فى الجبال والأغوار
واقرأوهــا « إن تنصــروا الله ينصركــم » وشدوا على التاتار
فلنعــم الأشجار تزكــو بأرض قدستها غوابــر الأشجــار

• • •

من فصاحة الأقوال .. إلى فصاحة الأفعال ..

مع تقدير الإسلام للداعية الفصيح .. المؤثر بفصاحة فى جمهوره.. إلا أن الداعية يجب أن يكون .. على وعى بأهمية الأفعال .. إلى جانب فصاحة الأقوال.

ذلك بأن السؤال فى يوم الحساب لن يكون عن « المعرب » وإنما السؤال عن المذنب .. وهو ما يجب أن نتوقاه .. مدركين أن الفصاحة لو كانت هى الفيصل لكان هارون أولى بالنبوة من موسى عليه السلام .. على ما يقول عز وجل : ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤] .

ولكن تقدير الرجال راجع بالدرجة الأولى إلى فضيلة القلب .. لا إلى فضيلة اللسان .. إلى الإيمان .

أما بعد :

فلكى ننصف الداعية .. فلابد أن نذكر المدعوين بمسئوليتهم معه ..

إن الجسم قد يعتل يومًا .. فيختل الجهاز الهضمى .. ومن أجل ذلك لا ينتفع الإنسان بطعام .

والعيب فى الجسم .. لا فى الطعام .. وبنفس القوة نقول :

بعض الناس يُعرضون .. فلا يستمعون إلى النصّيحة .. لأن قلوبهم فى أكنة من شهواتهم ..

وإذن .. فالعيب فيهم .. وليس العيب فى النصيحة ولا فى الناصح الأمين.

• • •

من مشاهد الاعتزاز بالدعوة

عاد المرحوم « الشيخ مصطفى عبد الرازق » من أوروبا بالباخرة .

وفى ليلة دخوله « الإسكندرية » رجع إلى زيه الأزهرى ..

وقال : « أيتها العمامة »: عزيزة أنت رغم كل شىء !!

• • •

الداعية بين الصعب والأصعب

خطورة المنكر :

إذا أمرت بالمعروف .. فإنك تدعو إلى إنشاء عادة جديدة ..

أما نهيك عن المنكر .. فدعوة إلى الإقلاع عن عادة قديمة ..

وذلك سر صعوبته : فإنشاء عادة سهل ميسور .. لكن الصعب أن تدعو إلى الانسلاخ من عادة قديمة ، مرد عليها المدعو .

ولذلك كان النهى فى حاجة إلى نسبة من الفقه والإرادة والحكمة أكبر ..

وقد قال المجربون : إن رذيلة واحدة تجعل الإنسان رذيلا لكن عشرات الفضائل لن تجعله فاضلاً ، ومن أجل ذلك قالوا : إن أخطر ما يواجه الداعية هو العادة .

• • •

أولى العقبات ، أمام الداعية

لأن العادة طبيعة ثانية كما يقرر علماء والنفس .. فإن الإنسان متشبث بما اعتاد عليه : لقد عرفه .. بل وألفه .. فهو منه فى أمان ..

ولأنه يفاجأ بالجديد .. الذى يخرجه من حصن الأمان .. فإنه يهب لمقاومته . تحرّضه على رفضه تلك القاعدة التى تقول: « الناس أعداء ما جهلوا » .

ومن أجل ذلك .. كان نصيب الداعية من هذه المقاومة كبيراً ؛ لأنه يحاول إخراجهم من عاداتهم أن ينسلخوا منها : من عالمهم الخاص الذى ألفوه ، إلى عالم هو أليق بكرامة الإنسان .

• • •

مع الإمام الغزالى

وهذا ما تكفل به الإمام الغزالى [١] والذى قتل الموضوع بحثا فتحدث بالتفصيل عن المنكر :

أ ـ من حيث زاوية النظر : فالمنكر : إما عام يقع من الجماعة مثل : ترك الجمعة ، والأذان ، وإهمال مرافق الأمة ؛ كمدّ الجسور ، وتوفير مياه الشرب .

ب ـ وإما منكر خاص : وهو الواقع من واحد معين . أو جماعة معينة مثل: شرب الخمر ، وعقوق الوالدين والتعامل بالربا وتطفيف الكيل والميزان .

جـ ـ ثم تحدث عن المنكر من حيث خطورته : فهو إما خطير أو صغير .

حـ ـ ثم من حيث محله : هل المنكر واقع على حق الله تعالى أو على حق العباد . . أو على حق الفرد .

د ـ من حيث اتصاله بمحل العدوان : هل هو عدوان مباشر ، مثل : السرقة والزنا . أو غير مباشرة ، مثل : الخلوة بالأجنبية ومخالطة الأشرار.

ثم تحدث عن شروط النهى عن المنكر : هذا المنكر : الواقع فعلا أو المتوقع ظاهرًا أو خفيًا .

ثم فصل القول فى المراحل التى يمر بها المنكر . . وواجب الداعية فى كل مرحلة .

وتكمن خطورة المنكر فى المنابع التى يستمد وجوده منها وهى : الكبر ، والحرص ، والحسد .

فى الوقت الذى تستمد فيه الطاعة أصولها من : الخوف ، والرجاء ، والحب.

وإحساسا من علمائنا بخطورة المنكر . وضرورة الحذر منه . . يوصون

(١) الإحياء (١٢٢٧) .

بالتسلح بالطاعة تحدِّيا له . ثم كانت لهم توجيهات فيها : إن الحسنة تلد الحسنة ، كما وأن السيئة تلد السيئة . . وقالوا : إذا سمعت عن طريق خير فاعمل به ، ولو مرة واحدة ، تكن من أهله .

ولا تترك عادة الخير . . . ولو مرة واحدة ؛ فراراً من النكسة التى تخسر بها كل بناء شيدّته من قبل و« **الإثم حوّاز القلوب** » يزين لها المنكر . . حتى تفعله . ثم تحدثوا عن خطورة العادة ، والتى تكمن فى :

١ ـ أنك لا تحس بها . . وأخطر الأمراض ما لا تحس به .

٢ ـ ومع طول الممارسة تصير جبلة ، يصعب التخلص منها . . لأنها بالممارسة تصبح إدمانا . .

وقد رأينا من يقلع عن المعصية ، خوفًا ثم صار يقلع عنها حياء .

والأصل القرآنى ، قوله تعالى : ﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ﴾ [غافر:٩] .

قال أحد الأعراب : لو كان لى ألف بعير . . وواحد منها أجرب . . لقمت على هذا الواحد المريض قيامة من لا يملك غيره .

ألا إن الطاعة : عادة . . والمعصية : لجاجة . .

وإذن فالمعاناة فى التخلص منها أشد كما قلنا ، ومن أجل ذلك سمعنا من يقول : ابتلائى بالنار أخف من ابتلائى بالمعصية لماذا ؟ لأن فى المعصية مخالفة لربى سبحانه !! وهو نفسه القائل: نعمتان تقبلان منى ، أحب إلىّ من دخول الجنة ؟ لماذا ؟؟

لأن رضا ربى أحب إلىّ فى الركعتين . .

وأما الجنة : فهى رضاى أنا ، وما يرضاه ربى أحب إلىّ مما أرضاه لنفسى !!

● ● ●

حتى تقطع الطريق على الشيطان

وإذا كان الشيطان الرجيم يزين لنا الإثم حتى نتورط فى مباشرته . فقد كان من رحمة الله تعالى بنا أن تعبدنا بما شرعه تعالى من عبادات هى سلاحنا فى مواجهة هذه الشيطان المريد .

فالصلاة : حارس يقظ يحميك من المعاصى ﴿ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] .

والصوم : يزودك بمنظومة القيم : ﴿ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ... ﴾ [آل عمران: ١٣٤] .

والزكاة : تحميك بالذات من الشح .. والفقير من الحسد فيلتقى الواجد بالفاقد.

والحج : غسيل عامّ تعود به كيوم ولدتك أمك .. من لم يجد لها اثراً فليبحث عن قلبه الذى ضاع فلم ينتفع به .

• • •

العاصى والمطيع

العاصى : تسمع منه وشوشة الحلىّ .. ورنين الأبيض والأصفر .. وليس فى ذهنه الآخرة : إنه يفجر أمامه .. ماض فى عشقة للدنيا .. ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾ [الانشقاق: ١٤] .

أما المطيع : فإنه يحنى ظهره وهو يغتسل من الجنابة ، حياء من ربه .

إن تذكره للآخرة لم يدع له وقتًا يستمتع فيه بما يملك ، وقد يكون بالى الثياب ينهمر منه عرق الشباب لكنّ بُغيته الثواب ..

فأين منه القائل : من أشد منا قوة ؟!!

والناس فى غفلاتهم ورحى المنية تطحن

قالها « أبو العتاهية » فلما قيل به : من أخذت ذلك ؟ قال : من قوله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ [الأنبياء:١] : اقترب .. بالماضى .. وليس «يقترب » بالمضارع.

وهكذا تصبح العبادة سبيلك إلى الجنة متجاوزاً كيد الشيطان :

إن الفرائض : طريق القرب. فأنت تحس فيها بالجدّ : بالرهبة والخوف .. فيقول لك عز وجل : « لا تخف .. فأنت قريب منى » .

أما فى النوافل : فدافعها الحب .. ولا تحس معها برهبة ولا خوف فكان جزاؤك من جنس عملك ؛ حبا من الله تعالى .

• • •

obeikandl.com